

مَدِينَةُ النَّصْرِ وَجَامِعُهَا

الدكتور مصطفى جواد

بقلم :

والدكتور أحمد سوسة

١ - مساحة المدينة

القياس بهما ، واستبدل بها أذرع أخرى ، كذراع المساحات والمسافات وتقديرها أو تحريرها بغداد وذراع حلب ثم تحول القياس في أيامنا من أعسر ما يكابده المؤرخون والخطيبون والخبرة إلى الياردات والشرات والكيلومترات والجغرافيون الباحثون في الحضارة الإسلامية والامبال الأوروبية والبوصات والستترات .
عموما ، والحضارة العربية خصوصا ، ذلك لأن أكثر المساحات كانت تعين وتحدد بالروايات المعروفة إلى رواة لم يباشروا القياس بل نقلوا ما حكاه الناس ، ولعل المسافات بين المدن والقري كانت الدني إلى الصواب من المساحات ، لأن الاسفار امور عملية مستدامة ، فيسهل على المسافر أن يقدر صائب التقدير أو يحرر أضبط التحرير ما يقطعون من المسافات بين البلدان والاصقاع والاقطار .

وَمَا أَعْسَرَ تَعْيِينَ الْمَسَاحَاتِ أَيْضًا اخْتِلَافُ مَقَائِسِ الْأَطْوَالِ فَالْقَصْبَةُ وَالْبَاعُ وَالذَّرَاعُ السُّودَاءُ وَالذَّرَاعُ الْهَاشِمِيَّةُ وَهِيَ مَقَائِسُ الْفَرَسِخِ وَالْمِيلِ وَالْبَرِيدِ ، قَدْ اخْتَلَفَ فِي تَقْدِيرِهَا كَمَا اخْتَلَفَتْ هِيَ فِي أَطْوَالِهَا ، وَبَقِيَ مِنْذُ عَصْرِ مَجَالًا لِلْاجْتِهَادِ فِي التَّقْدِيرِ ، لِأَنَّ الْقَصْبَةَ وَالذَّرَاعَ أَنْوَاعًا قَدْ تَرَكَّ

ثم ان المدن في تاريخ الحضارة العربية مختلف في تعريفها فالحصون الكبيرة سميت مدنا لانتمائها على جميع مرافق الحياة ، والمحلات الكبيرة سميت مدنا أيضا كما كانت في « طيسفون » التي سماها العرب « المدائن » لاستقلال محلاتها بعضها عن بعض ووساعتها ، والبلدان الكبيرة

سميت مدنا أيضا . فلذلك كان من الصعوبة
 بمكان على المؤرخ البلدانى والجغرافى أن يفهم
 فحوى كلمة « مدينة » حينما يوصف بها موضع
 من المواضع ، أو موقع من المواقع ، وكذلك
 الامر في « مدينة السلام » التي هي مدينة المنصور،
 فالقارىء يظن أول وهلة أنها من المدن الفسيحة
 الكبيرة ، مع أنها كانت حصنا عظيما هيا فيه
 المنصور جميع مرافق الحياة ووسائل الدفاع ،
 وجمع بين الاستعداد للسلم والاستعداد للحرب ،
 ولذلك ترك المواضع القريبة من السورين العظيمين
 لمدينته خالية من البناء ليكنه فيها الحرب والجلاد،
 والدفاع والقراع ، فهي مدينة المنصور وأعظم ما
 أمكن العباسيين بناؤه من الحصون بعد أن بنوا
 حصنين عظيمين هما « مدينة الهاشمية » قرب
 الكوفة و « هاشمية الانبار » قرب الانبار ثم
 تركوهما بالتدريج .

وقد ذكر الخطيب البغدادي^(٤) في كتابه
 « تاريخ بغداد » نقلا عن رباح البناء وكان ممن
 تولى انشاء سور المدينة ، قال : « وكان بين
 كل باب من أبواب المدينة الى الباب الآخر ميل »^(٥)،
 ونقل ياقوت في معجمه الرواية نفسها^(٦) ، وأورد
 مؤلف كتاب « مختصر مناقب بغداد »^(٧)
 الرواية بعينها نقلا عن اسحق الازدي بقوله :
 « ذكر اسحق الازدي أن رباحا البناء حدثه وكان
 ممن يتولى بناء سور مدينة المنصور قال : « من كل
 باب من أبواب المدينة الى الباب الآخر ميل ، وفي

وبناء أعلى ما قدمنا نقول لا غرو أن اختلف
 المؤرخون في تعيين مساحة مدينة المنصور وأبعادها،
 وان التفاوت الكبير بين الرواية والاخرى يجعل
 التحقيق في شأنها صعبا وعسيرا . فقد ذكر
 يعقوبى وهو أقرب المؤرخين زمانا من عهد
 انشاء المدينة ان المسافة بين كل باب من المدينة
 الى الباب الآخر الذي يليه من خارج الخندق
 خمسة آلاف ذراع^(١) بالذراع السوداء ،^(٢)

(٣) تساوي المشاركة (٢٥٠٠) متر مربع .

(٤) المجلد الاول (طبعة مصر) ص ٦٩

(٥) يساوي الميل العربي حسب تحقيق

نلينو (١٩٧٣) مترا (علم الفلك ص ٢٨٨)
 ويعتبر مساويا (٤٠٠٠) ذراع سوداء .

(٦) معجم البلدان الجزء الاول (الطبعة

الاوروبية) ص ٦٨٣

(٧) طبعة بغداد ص ٩

(١) البلدان طبعة النجف ص ٧

(٢) اختلفت الآراء في مقدار ذلك الجنس من
 الذراع فقد توصل العلامة نلينو بعد تحقيق دقيق
 الى انه يساوي (٤٩٣٣) ملليمتر (علم الفلك
 ص ٢٨٨) ، وقد اعتبره كريزويل (٥١٨)
 ملليمتر ولغرض تحقيقنا اتخذنا الرقم ٤٩٥
 ملليمتر لطول الذراع السوداء .

كل ساف مائة ألف لينة واثنتان وستون لينة • «
ولما كان هذا الوصف يتناول البحث عن السور
خاصة وكان رباح ممن تولى بناء سور المدينة
استخلصنا من كل ذلك أن المسافة التي ذكرها
بين كل باب وآخر يليه قد قصد بها المسافة بين
باب وآخر على طول السور ، على النحو الذي
أوضحه اليعقوبي في نص قوله ، وقد سبقت
الإشارة إليه • وإذا أخذنا بهذه الأبعاد وحسبنا
الميل العربي مساويا (٤٠٠٠) ذراع سوداء كان
طول المحيط (١٦٠٠٠) ذراع أي (٧٨٩٣) مترا
(زهاء ثمانية كيلومترات) وطول قطر المدينة
(٥٠٩٣) ذراعا أي (٢٥١٢) مترا، وتكون المساحة
بحسب هذه الأبعاد (٢٠٣٦٨٠٠٠) ذراع
مربعة ، أي (٤٩٥٦٧٥٤) مترا مربعا وهي
تساوي (١٩٨٣) مشاركة •

ثم يذكر الخطيب نقلا عن يحيى ابن الحسن
ابن عبد الخالق أن « خط المدينة ميل في
ميل » • ونسترجع أن المقصود بذلك هو أن
المسافة بين كل باب وآخر يليه على طول خط
المدينة الخارجي هو ميل ، وهذا يتفق مع قول
رحاب البناء الذي مر فيما تقدم • وقد ذكر
الخطيب أيضا نقلا عن محمد بن خلف وكيع أن
المنصور جعل الطول من باب خراسان إلى باب
الكوفة ثمانمائة ذراع ، ومن باب الشام إلى باب
البصرة ستمائة ذراع ، وهذا الخبر يدل على أن
الأبواب لم تكن في نهايات القطرين المتعامدين
وفي التاريخ روايات أخرى كثيرة في سعة
المدينة ومساحتها لا يصح الأخذ بها للفتاوت
الكبير بين الواحدة والآخرى ، ولغموض
بعضها • فقد ذكر الخطيب البغدادي أيضا في كتابه
« تاريخ بغداد »^(٨) نقلا عن أحمد ابن البربري
أن مساحة مدينة المنصور تبلغ ثلاثين
ومائة جريب ، وأن خنادقها وسورها ثلاثون
جريبا ، ونقل ذلك ابن الجوزي أيضا^(٩) فقال :
ان مساحة المدينة مائة جريب وثلاثون جريبا ،
ولما كان الجريب القديم يساوي (٣٦٠٠) ذراع

(١٠) يساوي الجريب (٦٠) في (٦٠) ذراعا
أي (٣٦٠٠) ذراع مربعة (زهاء ١٠٠٠ متر
مربع) وهو غير الجريب المستعمل حاليا في
بساتين البصرة ويساوي قرابة (٤٠٠٠) متر
مربع •

(٨) المجلد الاول (طبعة مصر) ص ٦٩

(٩) مختصر مناقب بغداد (طبعة بغداد)

المحيط الذي يمثله السور الكبير، ثم نجد أن رواية رباح هذه أوردتها كل من الخطيب وابن الجوزي ويقوت . لذلك نعتبر قطر المدينة (٥٢٨٣) ذراعا أي (٢٦١٥) مترا ويكون طول محيط المدينة بحسب هذه الأبعاد (١٦٥٩٧) ذراعا أي (٨١٣٢) مترا والمساحة (٢١٩١٦٣٣٨) ذراعا مربعة أي (٥٣١٤٢٢٦) مترا مربعا وهي (٢١٢٦) مشاركة (انظر مرسم مدينة المنصور المدورة) .

٢ - جامع المنصور

ومن المباحث التي لا تزال تعالج بأقلام الخططين ومن جرى مجراهم من المؤرخين الجغرافيين مبحث « جامع المنصور » في مدينة السلام التي قدمنا الكلام على مساحتها ، فأخبار هذا الجامع - الذي كان مصلى للناس جامعا ، وموضعا لتدريس العلوم الاسلامية ، وحلقات المناظرات ومجالس الحديث النبوي ومجلا للاستملاء لتسجيل الاخبار والآثار - قليلة جدا من حيث بيان العمران ، والكشف عن حقائق البنيان ووصف المرافق والمداخل والمخارج ، وما يتصل به من الابنية الخاصة بقصر المنصور المعروف بقصر باب الذهب .

وقد جرت العادة في انشاء المدن الاسلامية أن يكون المسجد الجامع بلصق دار الامارة ، كما هو معروف في الكوفة والبصرة وغيرهما ، وأيدت البحوث الأثرية والكشوف الارضية ذلك بما كشف عنه من آثار دار الامارة بالكوفة ، والسبب في ذلك ان الجامع كان مجتمع الشعب في كل مدينة اسلامية ، ففيه كانوا يصلون ويتداولون الآراء ويتلقون الانباء وتصدر اليهم الاحكام

لدائرة مدينة المنصور . وفي الوقت نفسه يذكر نقلا عن وكيع أن مدينة المنصور قطرها من باب خراسان الى باب الكوفة ألفا ذراع ومائتا ذراع ومن باب البصرة الى باب الشام ألفا ذراع ومائتا ذراع ، وهذا الخبر يؤيد التناظر بين الابواب . ومن هذا يتبين اختلاف الرواة في تقدير المساحات والمسافات وصعوبة التحقيق على الباحث في شأنها .

وقد اتخذت لي سترانج الأبعاد التي أوردتها اليعقوبي ، أي أنه حسب المسافة بين باب وآخر يليه من الخارج خمسة آلاف ذراع سوداء وبذلك يكون طول المحيط (٢٠٠٠٠) ذراع وطول قطر المدينة (٦٣٥٦) ذراعا أي (٣١٥١٥) من الامتار في حين أن هرزفلد وكريزويل اتخذنا الأبعاد التي أوردتها الخطيب وابن الجوزي نقلا عن رباح البناء على اعتبار انه يمثل أقدم المصادر مضافا الى أنه تولى بناء السور الكبير للمدينة ، وقد فسرا رواية رباح التي تفيد أن المسافة بين كل باب من أبواب المدينة الى الباب الآخر الذي يليه ميل بان هذه المسافة هي من خارج المدينة وبذلك حسبنا طول محيط المدينة (١٦٠٠٠) ذراع ، وبذلك يكون قطرها عند السور الكبير (٥٠٩٣) ذراعا أو (٢٥١٢) مترا وقد أضافا (١٩٠) ذراعا الى ذلك باعتبار عرض الخندق على أحد جانبي القطر يساوي ٩٥ ذراعا .

ونميل الى تأييد كريزويل وهرزفلد فيما ذهبنا اليه ، لأن رواية رحاب تعد أوثق الروايات على اعتبار أن رحابا تولى بنفسه بناء السور ، وليس من شك في أن الأبعاد التي يذكرها بين باب وآخر يليه هي على طول السور نفسه أي على طول

والاوامر والنواهي من العامل أي الوالي ، فكان الجامع أقرب ملتقى للأمير الحاكم مع رعيته ، وأقدس موضع لإعلان مظاهر الاسلام ، وتطبيق الاحكام ، وخاصة القضاء بين الناس ، فضلا عن سهولة دخول الامير في الجامع من مدخل بين العمارتين لإداء صلاة الجمعة . فلذلك لم يكن غريبا عن المؤلف المعروف أن يبني المنصور جامع مدينته بلبصق قصره ليجمع فيه أهل بغداد المسلمون من سكان الجانب الغربي منها تجميعا عاما ، ومنهم سكان مدينته المعروفة بمدينة المنصور الذين كانوا أقرب الناس مساكن الى هذا الجامع .

ومع أن عمارة الجامع كانت غير معقدة بالنسبة الى دار الامارة أو القصر كما هو الحال في قصر المنصور ، فقد تهمننا معرفة مساحته وموضعه من ملاصقته القصر وما فيه من اروقة للمصلين ومحراب لامامهم وأساطين الاروقة ومساحات الاروقة وعددها ومتوضعات المصلين ومقصورة للخليفة ومعرفة غير ذلك مما جرت العادة بانشائه داخل الجامع من صنف تحفظ المصلين من المطر شتاء ، ومن الشمس صيفا في اثناء التوضوء والتطهر ، وكان في طائفة من الجوامع سقايات يشرب منها المصلون كسقاية الراضى بالله داخل جامع المنصور ، لان الماء الشروب قد يختلف عن ماء الوضوء من حيث مدة الاختزان وطريقة الحفظ والاجراء ، والجدة والقدم .

ولذلك بقي المجال مفتوحا للبحث في الكتب غير المطبوعة والاستنتاج والاجتهاد في الرأي ، والتخمين والاسترجاح ، ولم نجد بعد من الكتب الخطية التاريخية ما يزيح العلة علة الابهام ، ويشفي الغلة غلة القطع في الاحكام ، فليس لدينا من الكتب القديمة التي فصلت أخبارها تاريخ هذا الجامع بعض التفصيل الا كتاب البلدان لابن واضح وتاريخ الطبري وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي في مقدمته ، وفيما يرد فيه استطرادا من اشارات الى أحوال الجامع وما جرى فيه ، وایماءات الى توابعه ومرافقه ، وكذلك مختصر مناقب بغداد الذي كان أصله لابي الفرج ابن الجوزي وقد ظهر في ذكر انشاء الجامع كأنه نسخة ثانية من تاريخ الخطيب ، فقد نقل ابن الجوزي فيه ما ورد في تاريخ الخطيب ، ولعله فعل ذلك في تاريخه المنتظم الا اننا لم نقف على الجزء الذي يتناول تاريخ انشاء مدينة المنصور وقصر المنصور وجامعه حتى اليوم .

وقد حاول تحقيق موضع جامع المنصور ثلاثة مستشرقين باحثين معروفين ووضعوا له مخططات وهم : گي لي سترنج ، وهرزفلد ، وكريزويل وكل منهم خالف غيره في مخططه الذي وضعه للجامع وفي مراحل تطوره . وقد لاحظنا من دراستنا لهذا الموضوع أن فيه نقاطا مهمة جدية بالبحث وتدقيق النظر ، ونحن نستهدف بكلامنا هذا بحث هذه النقاط ، ومن أجل الايضاح نقل مخططات الباحثين الثلاثة المذكورين في أعلاه لتسهيل الرجوع اليها ، وتبع تعليقاتنا وملاحظاتنا على كل منها ، ووضعنا أيضا مخططا جديدا يمثل مقتضيات تاريخ العمران وتاريخ الهندسة المعمارية ،

وكان قائما على أساطين من الخشب ، لكل اسطوانة منها تاج مدور مصنوع من قطعة خشب واحدة موضوعة فوق أعلى الاسطوانة • وكانت الاسطوانة مؤلفة من قطعتين (معقتين) بالعقب والغراء وضبات الحديد الا خمسا أو ستا عند المنارة فإن في كل اسطوانة قطعا ملفقة مدورة من خشب الاساطين (١١) •

وهنا تتوارد على الذهن عدة أسئلة لم تتطرق المدونات التاريخية إليها وهي :

« أين كان موقع الجامع من ملاصقته القصر؟ أفكان في الجهة الشمالية الشرقية ، قبالة باب خراسان ، أم كان في الجنوب الشرقي مقابل باب البصرة ؟ أم كان في الجهة الجنوبية الغربية مقابل باب الكوفة ؟ ثم أين كان موقع الجامع من جدار القصر الملاصق له ؟ أفكان في الوسط أم على امتداد إحدى أضلاع بناء القصر ؟ ثم أين كان موقع المحراب من الجامع وأين كان موقع المنارة من الجامع ، فقد ورد ذكرها استطرادا غير مرة دون تعيين موقعها ؟ ... »

وفيما يختص بالاجابة عن السؤال الاول فقد رسم هرزفد الجامع في مخططه لمدينة المنصور في الطرف الجنوبي الغربي مقابل باب الكوفة (انظر مخططه للمدينة المدورة) ، أما غي لي سترنج فقد رسمه في الطرف الجنوبي الشرقي أي مقابل باب البصرة (انظر مخططه لمدينة المنصور المدورة) ، وأما كريزويل فلم يوافق أحدا منهما فيما ذهب إليه ، فرسم الجامع ملاصقا لجدار القصر مقابل باب خراسان ، وهذا هو الصحيح في نظرنا ، وذلك

(١١) تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي

(١ : ١٠٧)

خطة البناء الأصلي أي تصميمه ، والتغيرات التي أدخلت عليه ، سائرين في ضوء مدونات المؤرخين في هذا الباب •

لقد مر على الجامع عدة أدوار من حيث تطور عمارته ندرجها فيما يأتي ايضاحا لكل منها :

الدور الاول - وهو الدور الذي تم فيه انشاء الجامع الأصلي لما اشئت مدينة المنصور ، وقد أنجز ذلك سنة ١٤٩هـ (٧٦٦م) ، فلذلك كان أول جامع بني ببغداد ، وقد تم اجماع المؤرخين واتفاق الباحثين على أنه كان ملاصقا لقصر باب الذهب ، وعلى أنه كان مربعا ، وأن طول الضلع الواحدة من المربع كان مائتي ذراع • وكان القصر الملاصق للجامع مربعا أيضا ، وطول الضلع الواحدة منه (٤٠٠) ذراع ، وكانت هذه عادة مألوفة حينذاك في انشاء الابنية • وقد عد كريزويل الذراع مساوية (٥١٨ر٠) من المليمترات وبذلك تكون ضلع مربع الجامع مساوية (١٠٣٦٠) من المترات فتكون مساحة الجامع (١٠٧٣٣) مترا مربعا أي زهاء أربع مشارات • وقد ذكر ان محراب الجامع كان منحرفا عن القبلة قليلا ويحتاج الى أن يحرف الى جهة باب البصرة قليلا ، وسبب ذلك ان الجامع شيد بعد مباشرة بناء القصر ، ولما جعل وضعه مناسباً لوضع القصر أصبح محرابه منحرفا عن القبلة • وقد ذكر أيضا أن الجامع بني باللبن ، وان التشبيه على أنه بني باللبن والطين يعني أن القصر بني بالآجر أو بالآجر واللبن في الأقل • وكان سقف الجامع من خشب الساج حسب قول ابن رسته وهو أقوى الخشب المعروف أيامئذ وأغلاه ثمنا ،

بالاعتماد على ما وصل إلينا من الروايات التي تؤيد ذلك الرأي ، فقد نقل الخطيب عن بعضهم أن القاضي أبا تمام الزينبي كان يصلي في أيام الجمع على باب داره الراكبة لدجلة باب خراسان ، والصفوف مادة من جامع المنصور الى ذلك المكان، والصلاة قائمة بمكبرين ينقلون التكبير عند الركوع والسجود والنهوض والقعود^(١٢) . وقال ابن الجوزي أيضا معيداً قول الخطيب ومضيفاً إليه : « وكان القاضي أبو تمام الزينبي^(١٣) يصلي في أيام الجمع على باب داره الراكبة لدجلة بسبب خراسان والصفوف مادة من المسجد الى ذلك المكان والصلاة قائمة بمكبرين ينقلون التكبير عند الركوع والسجود ، وعلى أبواب المقصورة بوابون بشباب سود يمنعون من دخول أحد أليها الا من كان من الخواص المتميزين بالاقية السود ، وكان ذلك رسماً في سائر مقاصد الجوامع ، وقد بطل حتى صار لا يلبسه الا الخطيب والمؤذنون^(١٤) ؛ وذكر الخطيب أيضا نقلاً عن أبي الحسين محمد بن الحسن بن محفوظ من رجال القرن الرابع أنه قال : « كنت أمضي مع والدي الى المسجد الجامع بمدينة المنصور لصلاة الجمعة فربما وصلنا الى باب خراسان في دجلة وقد ضاق الوقت وقامت الصلاة وامتدت الصفوف الى الشاطيء فنصعد ونفرش الى السميرية ونصلي »^(١٥) وقال ابن الجوزي أيضا : « كانت الجمعة كالعيد في هذه الجوامع خصوصا في جامع المدينة ، فانه كان قديماً

لا يسمع الناس ... وكان الناس يمتدون فيه الى دجلة . »
ومما يؤيد أيضا أن الجامع كان مقابل باب خراسان الاشارة الى أن الرشيد حين جدد بناء الجامع في الدور الثاني من أدواره كتب اسمه وتاريخ البناء على الجدار خارج المسجد مما يلي باب خراسان أي مقابل باب خراسان (انظر ما يأتي) . كل ذلك يؤيد ما ذهب اليه كريزويل في هذا الصدد .

أما ما يتعلق بموقع الجامع من ملاصقته جدار القصر فقد اتفق معظم الباحثين قبلنا على ان الجامع كان في أوساط ضلع بناية القصر بحيث يفضل مائة ذراع من كل جانب من جانبي الضلع ، وقد رسمه هرزفلد على هذا الشكل في مخططه وقد أيده كريزويل في ذلك (انظر مخطط هرزفلد) . أما نحن فنرجح أنه كان ملاصقا لجدار القصر بامتداد الضلع الشمالية لبناية القصر، وهي الضلع التي تتجه من الغرب نحو باب خراسان ، وذلك من الزاوية القائمة بين ضلعي بناية القصر المربعة من الخارج ، وهذا أقرب الى المنطق من الناحية الهندسية فامتداد جدار الجامع باستقامة واحدة مع جدار القصر فيه من الترابط والتماسك بين البنايتين ما لا يخفى على العارف بالهندسة العمارية . ومما يؤيد رأينا هذا ان الجامع على النحو الذي أوضحناه سهل على المعتضد عملية ضم مساحة اضافية من القصر الى الجامع حيث مكنه من فتح باب رئيس من الخارج لدخول وخروج المصلين الى القسم المضاف من القصر كما سيأتي من بحثنا في ذلك في الدور

(١٢) نفس المصدر (١ : ٤٧-٤٩)

(١٣) ورد في الاصل « الزينبي » وهو خطأ

(١٤) مختصر المناقب ص ٢٢

(١٥) تاريخ بغداد (١ : ٤٧-٤٩)

هذا البيان • ويلاحظ ان هرزفلد ثبت موضعها في الزاوية الجنوبية بين جدار الجامع وجدار القصر من الخارج (انظر مخططه للجامع) هذا في حين أن كريزويل لم يثبت المنارة في مخططه وذلك مما يدل على أنه كان مترددا في تعيين موقعها لفقدان كل نص صريح يوضح ذلك •

على أننا نرجح أن المنارة كانت في الركن المقابل لذاك من الضلع نفسها أي مقابل الموقع الذي عينه هرزفلد (انظر المخطط الذي وضعناه للجامع) وذلك لوجود رواية تشير بالتأكيد الى أن المنارة كانت في أقرب مكان من باب الشام ، وهذا هو المكان الذي يتفق مع هذه الرواية ، ومضمون الرواية هو أنه وقع حريق في سوق النجارين بباب الشام سنة ٣٠٣هـ فاحترقت السوق بأهلها ووقعت شمرارات في منارة جامع المنصور فاحترقت^(١٧) • وقد يصح الاستناد الى هذه الرواية أيضا في تقبل فكرة كون الضلع الشمالية من جدار الجامع تمتد بامتداد جدار القصر وهو الذي استرجحناه في مخططنا للجامع وقد سبقت الإشارة الى ذلك •

هذا وقد أشرنا آنفا الى الدور الثاني من تطور بناية الجامع ، أي الدور الذي أعاد فيه هارون الرشيد بناء الجامع وقد بناه بالأجر والجص ، فقد قال الخطيب ان الجامع « لم يزل على حاله الى وقت هارون الرشيد فأمر هارون بنقضه واعادة بنائه بالأجر والجص ففعل ذلك وكتب عليه اسم الرشيد وذكر أمره بنائه وتسمية البناء والنجار وتاريخ ذلك وهو ظاهر على الجدار خارج المسجد

الثالث من أدوار بناية الجامع •

وأما مواقع المحراب والمنبر والمقصورة من الجامع فليس من شك في أنها كانت ملاصقة للجدار المشترك الذي بين الجامع والقصر نحو وجهة القبلة ، كما أن المصلى الكبير المسقف بأساطينه الثمانية كان بلصق الجدار أيضا ومنه تمتد الاروقة على طول الجدران الثلاثة الخارجية للجامع • ويلاحظ أن هرزفلد رسم المصلى المذكور والمحراب والمنبر والمقصورة في الطرف المقابل الخارجي ، أي في موضع المدخل الرئيس للجامع ورسم أيضا الاساطين التي يعتمد عليها سقف المصلى الكبير في ذلك الطرف أيضا وجعل رواقين يمتدان على طرفي الجامع ويتصلان بالجدار الملاصق للقصر ، وقد صحح ذلك كريزويل في مخططه بأن ثبت المصلى الكبير والمحراب والمنبر والمقصورة بلصق الجدار المشترك بين القصر والجامع ، وجعل المداخل الرئيسة للجامع من أطرافه الخارجية الثلاثة ، وان ذلك هو الصحيح في نظرنا ، ومن المرجح أنه كان منفذ خاص من القصر الى الجامع في الجدار المشترك بين القصر والجامع نعني في أحد جانبي المحراب والمقصورة وكان يدخل الخليفة منه الى الجامع ليصلي فيه •

وكان للجامع منارة للأذان ذكرت استطرادا فقد ذكر الخطيب البغدادي أن أبا عبدالله بن دوست المحدث الفقيه المالكي المتوفي سنة ٤٠٧هـ دفن حذاء منارة مسجد جامع المدينة^(١٦) ، وقد ورد ذكر المنارة أيضا في مدونات أخرى عدا

(١٧) المنتظم (٦ : ١٣٠)

(١٦) نفس المصدر (٥ : ١٢٥)

للمسجد (للجامع) وانه كان لهذه الدار باب يدخل منه الخليفة الى الجامع ليصلي فيه ، ثم بعد ان اصيقت الدار الى الجامع وسع الباب ليدخل المصلون اليها من داخل الجامع ، وقد سمي بباب المشبك ، فقد ورد ما يشير الى ذلك في مجالس العلماء للزجاجي فقال ما هذا نصه : « قال أحمد بن يحيى (نسلب) كتب النبي يعقوب بن السكيت من سر من رأى يسألني عن أشياء أسأل ابن الاعرابي عنها فصرت اليه في يوم الجمعة بعد الصلاة الى حلقتة في المسجد في الجانب الغربي ، وكان يصلي عند باب المشبك مما يلي المنارة ، فكان أول شيء سألته عنه . الخ » ونستخلص مما تقدم أن باب المشبك السالف الذكر هو نفس باب القطان ، وأن المنارة كانت في جواره في الزاوية التي بين القصر والجامع من الخارج . ويلاحظ أن الباحثين المحققين في موضوع الجامع وتطور بنيته قد أهملوا تثبيت موقع دار القطان في مخططاتهم ، ولعل سبب هذا الإهمال يرجع الى حيرتهم في أمرها من حيث موقعها من القصر والجامع .

ثم جاء عهد المعتضد فزاد بدر مولى المعتضد من قصر المنصور المسقطات المعروفة بالبدرية في ذلك الوقت (٢٠) . وهذا يعني أنها سميت « المسقطات البدرية » بعد أن أضافها بدر الى الجامع ، فلما أضافها نسبها الناس اليه على عاداتهم في مثل هذا الامر .

وهنا نجد نصا واضحا على أن المسقطات البدرية هذه استقطعت من قصر المنصور وأصيقت الى الجامع . ومن المستغرب أن هرزفولد ثبت هذه

مما يلي باب خراسان الى وقتنا هذا . « (١٨) وقد تم ذلك قبل سنة ١٩٣ هـ (٨٠٨-٨٠٩ م) . ويستدل مما تقدم أن الجامع كان مقابل باب خراسان ، وقد شاهده الخطيب عندما ألف تاريخه سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) وصار هذا الجامع يعرف بالصحن العتيق وبالمسجد الاول لتمييزه عن القسم المضاف اليه فيما بعد .

ثم أضيفت الى الجامع في دوره الثالث (الذي حدد تاريخه بسنة ٢٦٦ هـ وقيل سنة ٢٦١) الدار المجاورة له المعروفة بدار القطان فذكر الخطيب نقلا عن ابراهيم بن مخلد وعلي الخطيب « أن الصلاة كانت في الصحن العتيق الذي هو الجامع حتى زيد فيه الدار المعروفة بالقطان ، وكانت قديما ديوانا للمنصور فأمر مفلح التركي بنائها على يد صاحبه القطان فنسبت اليه ، وجعلت مصلى للناس وذلك في سنة ستين أو إحدى وستين ومائتين » (١٩) . وقد نقل الرواية نفسها ابن الجوزي بقوله : « ثم زيد (في الجامع) دار القطان وكانت قديما ديوانا للمنصور تولى عمارتها قطان كان غلام مفلح التركي فنسبت اليه ، وذلك في سنة ستين (أو إحدى وستين) ومائتين . » وكان ذلك في عهد المعتمد على الله عندما كان في سامراء . وهنا يستوقفنا سؤال هو : « أين كانت دار القطان ؟ » نحن لا نشك في أنها كانت داخل القصر يدل على ذلك انها كانت ديوانا للخليفة من ضمن مرافق القصر ، والارجح عندنا أنها كانت في الزاوية الشمالية الغربية التي بين الجامع والقصر بالقرب من منارة الجامع (انظر مخططنا

(١٨) تاريخ بغداد (١ : ١٠٨)

(١٩) نفس المصدر (١ : ١٠٨)

جانبا) وأمر بتجديد المنبر والمحراب والمقصورة وتجميلها ونقلها الى المسجد الجديد وصار يعرف المسجد الجديد بالصحن الاول لتمييزه عن الصحن العتيق . ولما كان عرض الجامع (٢٠٠) ذراع فقد اعتد هرزفلد عرض الفتحة والطاق تسع أذرع وعرض الدعامة ذراعين وقدر عرض الجدار الخارجي والبدنات^(٢١) بسبع أذرع ونصف ذراع وقد أيده في ذلك كريزويل . ودونك ما ذكره الخطيب نقلا عن ابراهيم بن مخلد واسماعيل بن علي قال : « واخبر امير المؤمنين المعتضد بالله بضيق المسجد الجامع بالجانب الغربي من مدينة السلام في مدينة المنصور ، وأن الناس يضطرم الضيق الى أن يصلوا في المواضع التي لا تجوز في مثلها الصلاة فأمر بالزيادة فيه من قصر أمير المؤمنين المنصور ، فبني مسجد على مثال المسجد الاول في مقداره أو نحوه ثم فتح في صدر المسجد العتيق ووصل به فاتسع به الناس وكان الفراغ من بنائه والصلاة فيه في سنة ٢٨٠هـ »^(٢٢) وقال أبو الفرج ابن الجوزي في حوادث سنة ٢٨٠هـ : « في هذه السنة زاد المعتضد في جامع المنصور دار المنصور وفتح بينهما سبعة عشر طاقا ، وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد ، وتولى ذلك يوسف بن يعقوب القاضي فبلغت النفقة عشرين ألف دينار »^(٢٣) .

ويلاحظ أن كريزويل خطط المسجد الجديد

(٢١) البدنة هي البناء الذي يسند به الجدار من الخارج وتشاهد مثل هذه البدنات في حائط جامع الكوفة وجامع سامراء وحسن الاخضر التي لا تزال آثارها قائمة .
(٢٢) تاريخ بغداد (١ : ١٠٨)
(٢٣) المنتظم (٥ : ١٤٣)

الاضافة في المدخل الامامي للجامع من الخارج (انظر مخططه للجامع) في حين أنها اقتطعت من القصر كما جاء في الرواية . أما كريزويل فلم يشبها في مخططه ، وهو يستغرب تشيبتها على النحو الذي ثبتها فيه هرزفلد في مخططه .

اننا لم نشر على أية اشارة الى المسقطات في كتب التاريخ المعروفة ، أما موقعها من القصر فنرجح انها كانت مقابل دار القطان داخل القصر وفتح مدخل اليها من الجامع في جدار القصر الملاصق للجامع . ويلاحظ ان كريزويل وهرزفلد قد اعتدا دار القطان والمسقطات البدرية موضعا واحدا ، يدل على ذلك ان ما يسميه هرزفلد في مخططه البدرية يطلق عليه كريزويل تسمية دار القطان ، وقد أهمل هرزفلد تشييت موقع دار القطان وسمى الاضافة التي ثبتها في مخططه خارج الجامع باسم البدرية .

والظاهر أن الاضافتين المستطعتين من القصر (دار القطان والمسقطات البدرية) في ضمهما الى الجامع لم تكونا كائيتين في سعة المصلين ففرر المعتضد سنة ٢٨٠هـ (٨٩٣-٨٩٤م) اقتطاع مساحة اكبر من القصر وضمها الى الجامع ، ويرجح أن دار القطان والمسقطات البدرية كانتا من ضمن الزيادة الثالثة هذه التي تمثل أهم توسع أدخل على الجامع ، فقد زاد المعتضد فيه من داخل القصر مسجدا على مثال المسجد العتيق (المسجد الاول) في مقداره أو نحوه ، وفتح في صدر المسجد العتيق بينه وبين القصر في الجدار المشترك بين الجامع والقصر سبعة عشر طاقا منها الى الصحن ثلاثة عشر والى الاروقة أربعة (طاقان من كل

المقتطع من القصر على نمط المسجد العتيق وحول المحراب والمنبر والمقصورة الى المسجد الجديد بلصق الحائط المشترك مع مرافق القصر من الداخل ، وقد جعل المسجد الجديد أصغر حجما بقليل من المسجد العتيق كما أنه جعل للمسجد الجديد مصلى مستقفا يستند الى أساطين ورواقين جانبيين يستندان الى اساطين أيضا على النحو الذي خطط فيه الصحن العتيق ، كما انه جعل للمسجد الجديد سورا من اطرافه الداخلية الثلاثة مع بدنات مسندة على النحو الذي خطط فيه سور المسجد العتيق وجعل في المسجد الجديد مدخلين متقابلين من داخل القصر ، أما هرزفلد فجعل للمسجد الجديد ثلاثة اروقة تستند الى صفيين من الاساطين تمتد على الاطراف الثلاثة الداخلية ، وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى البدرية ، وقد اعتدها هي ودار القطان موضعا واحدا كما اوأنا اليه أنفا ، وقد جعل موضعها ملاصقا للمسجد العتيق من الخارج كما جعل للمسجد الجديد مثلما فعل كريزويل سورا من أطرافه الداخلية الثلاثة مع بدنات مسندة على النحو الذي خطط فيه سور المسجد العتيق ، وجعل للمسجد الجديد مداخل ثلاثة في وسط الاطراف الداخلية الثلاثة داخل القصر . ويتفق هرزفلد مع كريزويل في جعل المسجد الجديد أصغر مساحة بقليل من المسجد العتيق .

وإذا دققنا النظر في الموضوع من الناحية العملية المنطقية نجد ان ما ذهب اليه كل من هرزفلد وكريزويل من ان المسجد الجديد مقتطع من وسط القصر وانهما في الوقت ذاته يشبان

سورا ذا بدنات مسندة في اطرافه الداخلية الثلاثة ومداخل مماثلة للمسجد العتيق لا يخلو من تناقض لان المسجد الجديد اذا كان قد اقتطع من وسط القصر كما يريان هما لا يكون له سور وبدنات وفتحات خارجية . أما نحن فنرى ان المسجد اقتطع من القصر في الزاوية الشمالية الغربية للقصر بحيث أصبحت الضلع الشمالية الغربية للمسجد تمتد على طول الخط الذي يسير مع سور القصر الخارجي ، وبذلك يكون السور ذو البدنات مقتصرا على هذه الضلع فقط ، هذا مما يجعل احداث مدخل رئيس للمسجد الجديد من الخارج في الضلع المذكورة ممكنا ، ولما كان المسجد الجديد على مثال المسجد الاول في مقداره أو نحوه على حسب قول المؤرخين كان بسعة مساحته هذه يستوجب أن يكون له مدخل رئيس من الخارج ليستثنى للمصلين أن يدخلوا اليه أو يخرجوا منه بغير مضايقة ولا ازدحام ، لذلك لا يمكن ان يكون قد اقتطع من وسط القصر .

اما الضلعان الملاصقتان للقصر من الداخل فتألفان من جدار بسيط حاجز يفصل المسجد الجديد عن مرافق القصر الداخلية والارجح انه كان مدخل من القصر الى المسجد الجديد في احدي الضلعين المذكورين . (انظر مخططنا للجامع) .

ويلاحظ ان الاستاذ الفاضل ناجي معروف أخذ في مقاله في جزء ايلول سنة ١٩٦٦ من مجلة الاقلام بمخططي هرزفلد وكريزويل من حيث جعل محيط المسجد الجديد في أضلعه الثلاث داخل القصر على شكل سور ذي بدنات مسندة ، كما يلاحظ انه جعل المسجد الجديد مقتصرا على

مصلى قوامه اساطين وأوصله بمصلى المسجد العتيق مباشرة دون أروقة أو ساحة وبذلك أصبحت مساحته قرابة ثلث مساحة المسجد العتيق وهذا لا يتفق مع النص الذي يشير الى ان المسجد الجديد الذي اقتطع من القصر كان « على مثال المسجد الاول في مقداره أو نحوه » ، ومما يذكر ان الجامع غرق في سنة ٦٥٣هـ والظاهر انه سلم من الخراب في اثناء حصار المغول لبغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وكان قائما حين زار ابن بطوطة بغداد في سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) على أن معالنه اختفت ولم يبق له أنسر بعد ذلك العصر أو نهاية القرن الثامن للهجرة فلم تذكره التواريخ التي نعرفها بعد تلك النهاية . وقد ظن بعضهم أن المحراب الذي كان في جامع المنصور قد نقل في القرن السابع عشر

الميلادي الى أحد جوامع بغداد الشرقية المعروف بجامع الخاصكي الذي شيده والي بغداد محمد باشا الخاصكي في سنة ١٠٦٩هـ (١٦٥٨م) مع أن جامع المنصور كان دائرا في القرن السابع عشر للميلاد، والمحراب هذا مع ذلك هو من أبداع آثار الفن العماري ، وهو مؤلف من قطعة عظيمة من الرخام متقنة الصنع والنحت وقد جاء وصفه في مؤلفات كثيرة ، وحاول جماعة من المستشرقين ابتياعه في عهد الاتراك فلم يفلحوا ، وجرت محاولات أخرى لانتزاعه من هذا الجامع ووضعها في أحد المتاحف الغربية ، ولكن هذه المحاولات كانت بغير جدوى ، والمحراب محفوظ اليوم في المتحف العراقي ببغداد فيمكن كل تائق الى مشاهدته أن يشاهده هناك ففيه روعة النحت وجمال الفن وحكاية التاريخ .